فقه لغة العرب كشرط لفهم النصوص
كتاب الحيوان للجاحظ نموذجا

د. أحمد مرغم

ملخص بالعربية

وسنحاول استخراج آراء الجاحظ المتعلقة بتفسير النصوص ،كضرورة أن يكون المفسر حاذقا علم اللغة، وذلك بمعرفة سعة اللغة العربية من جهة، وسنة العرب في كلامها من جهة أخرى، فيعرف مثلا أن اللفظ العام يبقى على عمومه مالم يرد ما يخصصه، وأن العرب قد تعبر بالظاهر ومرادها المستعمل، وأن اللفظ يحمل إمكانية توسيع ما يدل عليه ظاهره، وأن الاختلاف في التعبير يدل على الفرق في الاهتمام والعناية.

وكما أن العلم باللغة وحده لا يكفي الباحث في تفسير القرآن الكريم وتأويله فإنه يتعين على المفسر حمل النصوص على اختلاف العلل وافتراق المعاني، وان يعلم أنه لا ينفعه الاشتغال بعلم الكلام ما لم ينضم إليه العلم بالشريعة وأن الغلو والإلحاد ينشأ من الجهل باتساع التعبير في اللغة، وأن من فوائد التقديم والتأخير في القرآن الكريم إيقاظ الضمائر والحث على التأمل، كما من فوائد إضافة اسم الحيوان إلى أسماء السور التنبه على التفكر فيها، وليس اتباع ظاهر اللفظ دائما هو القائد إلى الصواب في التأويل.

١- ضرورة أن يكون المفسر حاذقا علم اللغة

لا ينفع الباحث في القرآن الكريم، أن يكون مشتغلا بعلم الكلام، وبكل علم من العلوم سوى العلم باللغة، حتى يكون عالما باللغة العربية، فقيها في ألفاظها، مفرقا بين مواقع تلك الألفاظ، وإلا فإنه سيهلَك في تفسير القرآن الكريم، لأنه سيحمله على غير ما تحمله عليه العرب، لأن الأساس في القرآن أنه جاء على سنة العرب في كلامها.

يقول الجاحظ: « وللعرب أمثال واشتقاقات وأبنية، وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضع أخر، ولها حينئذ دلالات أخر، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة، والشاهد والمثل؛ فإذا نظر في الكلام١ ، وفي ضروب من العلم، وليس هو من أهل هذا الشأن، هلك وأهلك «.٢

وهنا نستحضر حادثة مهمة تبين وتشرح هذا الكلام، وقد تناقلها العلماء نظرا لما تدل عليه من خطر الجهل بلغة العرب، وبالفروق اللغوية الدقيقة فيها، وإن كان الرجل مع ذلك بارعا في كل علم، فغنه سيدخل عليه النقص من جهله بالعربية ودقائقها.

وينقل عبد القاهر الجرجاني قصة طريفة في هذه الجزئية تدل على أنه لا ينفع مع الجهل بالعربية أي علم

« ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوا! فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبد الله قائم، إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم، جواب عن إنكار منكر قيامَه. فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني، قال فما أحار المتفلسف جوابا».٣

وهذا الكلام من أبي العباس جاء في بعض الفروق في استعمالات» إن « فحسب، فما بالك بالصيغ اللغوية على كثرتها وتنوعها في جميع أبواب العربية.

١-١- اللفظ العام يبقى على

عمومه مالم يرد ما يخصصه

ومثال ذلك قوله تعالى: (وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً) النساء: ١١٩

ينقل الجاحظ فيها أقوال المفسرين مثل ابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة ومجاهد وغيرهما، ثم ينص على قاعدة لغوية تتعلق بالألفاظ ودلالاتها:

« فاللفظ الذي ليست فيد دلالة على شيء دون شيء، يكون لفظا عاما، وبذلك لم يكن لأحد أن يقصد به إلى شيء بعينه، إلا أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك مع تلاوة الآية، أو يكون جبريل عليه السلام قال ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، لأن الله تبارك وتعالى لا يضمر ولا ينوي، ولا يخص ولا يعن بالقصد،

وإنما الدلالة في بنية الكلام نفسه، فصورة الكلام هو الإرادة وهو القصد، وليس بينه وبين الله تعالى عمل آخر كالذي يكون من الناس «.٤

وبالنظر إلى ابن جرير فإنه يزيد هذا الأصل شرحا وتوضيحا، حين يحمل لفظ التغيير على عمومه، لأن دين الله جاء حاكما على خلق الله، فكل تغيير في الخلق فهو بالضرورة تغيير في الدين لأن فيه مخالفة أحكام الدين في هذا الخلق، فرجع تغيير خلق الله إلى تغيير دين الله في ذلك الخلق، وحمل بذلك اللفظ على عمومه، وحمل اللفظ على عمومه أولى من تخصيصه بغير مخصص.

ودليل ذلك ما ورد في معاني القرآن للزجاج، ونقله القرطبي في تفسيره:

« إن معناه أن الله خلق الأنعام ليركبوها، ويأكلوها فحرموها على أنفسهم، وخلق الشمس والقمر والأرض والحجارة سخرة للناس ينتفعون بها، فعبدها المشركون، فغيروا خلق الله، أي: دين الله، لأن الله فطر الخلق على الإسلام، خلقهم من بطن آدم كالذر، وأشهدهم أنه ربهم فآمنوا، فمن كفر فقد غير فطرة الله التي فطر الناس عليها».٥

« فالفصيح من كلام العرب أن يترجم عن المجمل من الكلام بالمفسر، وبالخاص عن العام، دون الترجمة عن المفسر بالمجمل، وبالعام عن الخاص، وتوجيه كتاب الله إلى الأفصح من الكلام أولى من توجيهه إلى غيره ما وجد إليه سبيل «.٦

أما اللغة التي يعترف بها الجاحظ أساسا للاستشهاد في معاني القرآن الكريم فهي لغة الأعراب الفصحاء، وكذلك من سار على نهجهم في الفصاحة، ولو كان من المولدين لأن البحث المنصف يقتضي أن يكون في المتأخرين بعض ما عند المتقدمين:

يقول الجاحظ: « والقضية التي لا أحتشم منها، ولا أهاب الخصومة فيها، أن عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب، أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى، من المولدة والناتية، وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه.

وقد رأيت ناسا منهم يبهرجون أشعار المولدين، ويستسقطون من رواها، ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروي، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان، وفي أي زمان كان «.٧

فالجاحظ لا يمنع من توسيع دائرة الاستشهاد حتى يصل بها إلى عصر المولدين، ناظرا في ذلك إلى أن الحسن ليس مقصورا على عصر دون عصر، وأنه لا يخلو عصر من العصور من أن يكون فيهم المحسن اللاحق بالجاهليين في الفصاحة، وإن كان الأمر أعم وأشمل في عصر الجاهليين، والأعراب.

١-٢- من الحذق باللغة معرفة سنة العرب في كلامها

ومن سنة العرب في كلامها مثلا أنها تحمل الشيئين على التثنية المجازية أو الجمع، فيقولون: الأحمران: الذهب والزعفران، ويقولون: أهلك الناسَ الأحامرُ: الذهب والزعفران واللحم والخمر.

والجديدان: الليل والنهار، وهما الملوان.

والعصر: الدهر: والعصران: صلاة الفجر وصلاة العشي، والعصران: الغداة والعشي.

ويقال: « البايعان بالخيار» وإنما هو البايع والمشتري، فدخل المبتاع في البائع.

وقال الله عز وجل: (وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ) النساء: ١١، دخلت الأم في اسم الأبوة، كأنهم يجمعون على أنبه الاسمين، كقولهم: ثبيرين، والبصرتين، وليس ذلك بالواجب، وقد قالوا: سيرة

العمرين، وأبو بكر فوق عمر.٨

وهذا من الجاحظ يدل على فقه في اللغة، إذ ليس التعبير بإطلاق أحد اللفظين من باب التغليب الذي سببه عند العرب دائما الأفضلية في اختيار اللفظ المغلب على اللفظ المغلوب، ولكن قد يحدث خلاف ذلك، بأن يعبروا عن الاسمين بالاسم الذي ليس هو الأفضل، والأعلى، والأشهر، كما حصل في قولهم: العمران في أبي بكر وعمر. فعلى الباحث في التفسير أن ينتبه لمثل هذه الفروق في التعبير، وأن يبحث عن أسبابها.

١-٣- من سنن العرب: التعبير بالظاهر ومرادها المستعمل

ويشير الجاحظ إلى فكرة اللفظ المستعمل، وغير المستعمل، وهو ما يعرف بالتداول، وأن هناك قواعد تحكم التخاطب، لا بد أن يتنبه لها كل من المتكلم والمخاطب حتى يتم الفهم والإفهام.

ويمثل الجاحظ لذلك بقوله تعالى:(فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) المائدة: ٣١.

يقول: « فلم يكن به على جهة الإخبار أنه كان قتله ليلا٩، وإنما هو كقوله تعالى: (وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ١٠ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) الأنفال: ١٦، ولو كان المعنى وقع على ظاهر اللفظ، دون المستعمل في الكلام، من عادات الناس، كان من فر من الزحف ليلا لم يلزمه وعيد.

وإنما وقع الكلام على ما عليه الأغلب من ساعات أعمال الناس، وذلك هو النهار دون الليل.

وهذا أيضا كقوله تعالى: (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ٢٣ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ) الكهف: ٢٤.

ولو كان هذا المعنى إنما يقع على ظاهر اللفظ دون المستعمل بين الناس، لكان إذا قال من أول الليل: إني فاعل ذلك غدا في السحر، أو مع الفجر أو قال الغداة: إني فاعل يومي كله، وليلتي كلها، لم يكن عليه حنث، ولم يكن مخالفا إذا لم يستثن، وكان لا يكون مألوفا إلا فيما وقع عليه اسم غد.

فأما كل ما خالف ذلك في اللفظ فلا، وليس التأويل كذلك لأنه جل وعلا إنما ألزم عبده أن يقول إن شاء الله، ليتقي عادة التألي، ولئلا يكون كلامه ولفظه يشبه لفظ المستبد والمستغني، وعلى أن يكون عند ذلك ذاكر الله، لأنه عبد مدبر، ومقلب ميسر، ومصرف مسخر.

وإذا كان المعنى فيه، والغاية التي جرى إليها اللفظ، إنما هو على ما وصفنا، فليس بين أن يقول: أفعل ذلك بعد طرفة، وبين أن يقول: أفعل ذلك بعد سنة فرق».١١

١-٤- سعة اللغة العربية عند الجاحظ

وما لا بد من معرفته أن العربية واسعة ولا يمكن أن يحيط بها إلا نبي، وإذا خفي بعضها على بعض الناس فلا يمكن أن يخفى على جميع الناس، حتى يوجد فيهم من يعلمه ولا يجهله، لتكون حجة الله قائمة في حفظ القرآن وحفظ لغته التي نزل بها.

يقول الشافعي: « وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره، لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه، وتفرقها، ومن علمه انتفت عنه الشبهة التي دخلت على من جهل لسانها».١٢

يقول الجاحظ مبينا سعة العربية وعلومها ومشاركتها في سائر الفنون: « وقلّ معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان، من الفلاسفة، وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين، إلا ونحن قد وجدناه أو قريبا منه في أشعار العرب والأعراب، وفي معرفة أهل لغتنا وملتنا ».١٣

١-٥- إمكانية توسيع ما يدل عليه ظاهر اللفظ

فإذا دل الدليل على إمكانية توسيع معنى اللفظة يعمل العلماء على أن لا يهملوا شيئا مما تدل عليه، محافظة على معاني الألفاظ ودلالاتها.

وهنا يورد قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) لقمان : ٢٧.

ويقول: « والكلمات في هذا الموضع ليس يريد بها القول والكلام المؤلف من الحروف، وإنما يريد النعم والأعاجيب،

والصفات وما أشبه ذلك، فإن كلا من هذه الفنون لو وقف عليها رجل رقيق اللسان صافي الذهن، صحيح الفكر، تام الأداة، لما برح أن تحسره المعاني وتغمره الحكم «.١٤

وقد نقل الإمام الطبري في الآية أقوال السلف، عن الحسن البصري وغيره، قال: « لو جعل شجر الأرض أقلاما، وجعل البحور مدادا، وقال الله: إن من أمري كذا، ومن أمري كذا، لنفد ماء البحور، وتكسرت الأقلام».١٥

ثم أورد الطبري وابن كثير قولا لقتادة قال: قال المشركون: إنما هذا كلام يوشك أن ينفد، فقال الله تعالى: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ ...)، قال: لو كان شجر البر أقلاما، ومع البحر سبعة أبحر، ما كان لتنفد عجائب ربي، وحكمته، وخلقه، وعلمه.١٦

إن تفسير قتادة يفتح الباب على مصراعيه للنظر في إعجاز القرآن الكريم، وأنه كما قيل: لا تنقضي عجائبه، فلا يمكن الإحاطة بكلمات الله لأنها لا نهاية لها ولا حد، وكذلك معاني كلمات الله لا يمكن أن يكون لها حد تقف عنده، وتكتشف كل معانيها، ولكنها أيضا لا تنفد معانيها على مر العصور.

إن تركيز الجاحظ على جعل هذا الموضع المتحدث فيه عن كلمات الله أنه يدل على عجائب خلقه وعلمه وحكمته، لا ينافي إثبات أن لله كلاما لا يفنى ولا يحاط به.

ومن القواعد المقررة في التفسير وأصوله، أن النص إذا ورد له أكثر من معنى لغوي صحيح تحتمله الآية بلا تضاد جاز تفسير النص به.١٧

والعجيب أن ابن عطية حكم على تفسير الكلمات بالعلم في هذا الموضع، أنه تفسير اعتزالي، بينما فسرها بالعلم في آيات سورة الكهف حيث قال: والكلمات هي المعاني القائمة بالنفس، وهي المعلومات، ومعلومات الله سبحانه وتعالى لا تتناهى، والبحر متناه ضرورة».١٨

وقال في قوله تعالى في سورة لقمان: « والغرض منها الإعلام بكثرة كلمات الله تعالى، وهي في نفسها غير متناهية، وإنما قرب الأمر على أذهان البشر بما يتناهى، لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة، وأيضا فإن الآية إنما تضمنت أن كلمات الله تعالى لم تكن لتنفد، وليس تقتضي الآية أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والنحو... وذهبت فرقة إلى أن الكلمات هنا إشارة إلى المعلومات».١٩

قال القرطبي: «وإنما الغرض الإعلام بكثرة معاني كلمات الله، وهي في نفسها غير متناهية، وإنما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى، لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة، لا أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور...».٢٠

وعليه فيمكن أن نجمع ما قيل في الآية، فنجعلها تطلق على كلمات الله تعالى حقيقة، كما تطلق على معاني كلمات الله سبحانه، وما فيها من عجائب لا تنقضي.

١-٦- الاختلاف في التعبير يدل على الفرق في الاهتمام والعناية

ويمثل الجاحظ لذلك بقوله تعالى في قصة أصحاب الكهف، لما ذهبوا إلى كهفهم، واستصحبوا معهم الكلب دون سواه من الحيوان الذي يؤلف كالحصان والبعير وغيرهما، فكان خصوص الكلب، ثم قال حين أخبر عن عددهم: (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً) الكهف: ١٨

ثم أعاد ذكر الكلب ونبه عن حاله، بأن قال عز وجل: (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً) الكهف : ٢٢

وفي قوله تعالى: ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ

دليل على أن الكلب رفيع الحال نبيه الذكر إذ جعل رابعهم وعطف ذكره على ذكرهم، واشتق ذكره من أصل ذكرهم، حتى كأنه واحد منهم، ومن أكفئهم أو أشباههم، أو مما يقاربهم، ولولا ذلك لقال: سيقولون: ثلاثة معهم كلب لهم،

وبين قول القائل: معهم كلب لهم، وبين قوله رابعهم كلبهم، فرق واضح وطريق بين.٢١

ثم يعرض الجاحظ لأصل مهم من أصول التفسير، وهو أن حكاية الله عز وجل لألفاظ قوم في القرآن الكريم، تعتبر إقرارا من الله تعالى على صحة تلك الألفاظ المعبر بها، إذا لم يتعقبها بالتصحيح أو التخطيء.

«لأن تلك الألفاظ، وذلك الكلام لو كان منكرا، لأنكره الله تعالى، ولو كان معيبا لعابه الله تعالى، فإذ حكاه ولم يعبه، وجعله قرآنا، وعظمه بذلك المعنى، مما لا ينكر في العقل ولا في اللغة، كان الكلام إذا كان على هذه الصفة مثله، إذ كان الله عز وجل المنزل له. وبعد فلا يمكن أن يجعل الله ذلك قرآنا ويترك التنبيه على ما فيه من العيب، إلا والقول كان صدقا مقبولا».٢٢

٢- العلم باللغة وحده لا يكفي الباحث في تفسير القرآن الكريم وتأويله

يقول الجاحظ: « ولو كان أعلم الناس باللغة، لم ينفعك في باب الدين حتى يكون عالما بالكلام»٢٣.

ويمثل لذلك بالاحتمالات التأويلية في قول الله تعالى: (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) ﴿النحل: ٨﴾.

قال: وقد يتجه هذا الكلام في وجوه: أحدها:

- أن تكون ههنا ضروب من الخلق لا يعلم بمكانهم كثير من الناس ولا بد أن يعرف ذلك الخلق معنى نفسه، أو يعلمه صفوة جنود الله وملائكته، أو تعرفه الأنبياء، أو يعرفه بعض الناس، لا يجوز إلا ذلك.
- أو يكون الله عز وجل إنما عنى أنه خلق أسبابا، ووهب عللا، وجعل ذلك رفدا لما يظهر لنا ونظاما.

ويفسر الجاحظ هذه الآية ويستدل عليها بالبرهان التجريبي لكون التجربة خادمة للتأويل الذي أثبته فكأنه لا حظ من المتحدث استغرابه لأحد تفسيريه.

فقد نقل عن بعض المفسرين قوله: « من أراد أن يعرف معنى قوله: (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) (النحل: ٨)، فليوقد نارا في وسط غيضة، أو في صحراء برية، ثم ينظر إلى ما يغشى النار من أصناف الخلق من الحشرات والهمج، فإنه سيرى صورا، ويتعرف خلقا، لم يكن يظن أن الله تعالى خلق شيئا من ذلك العالم.

على أن الخلق الذي يغشى ناره يختلف على قدر اختلاف مواضع الغياض والبحار والجبال، ويعلم أن ما لم يبلغه أكثر، وأعجب، وما أردّ هذا التأويل، وإنه ليدخل عندي في جملة ما تدل عليه الآية، ومن لم يقل ذلك لم يفهم عن ربه ولم يفقه في دينه «.٢٤

فكلما اتسعت الآية الكريمة من جهة المعنى والاحتمال، وكان لذلك التوسع في معناها شاهد من اللغة أو من العقل أو من الحس، فلا حرج أن نأخذ به، ما دام خادما لمعنى الآية الكريمة

٢-١- حمل النصوص على اختلاف العلل وافتراق المعاني

وهنا لا بد للمفسر من صفاء ذهن، ومن فطرة سليمة، ومن ذكاء يستطيع بواسطتها النظر في النصوص، وذلك أن للنصوص عللا مؤثرة قد تخفى على صاحب التفسير حتى تظهر له متشابهة وما هي من المتشابه، لأنه إذا فرق بينها من خلال اسباب النزول أو أسباب الورود، فإن ذلك سيكون مخرجا لتلك النصوص من المتشابه إلى المحكم وحينئذ لا يلغي أي نص منهما، بل يعمل بكليهما، ويسقط كل نص على الحالة اللائقة به.

ويستدل الجاحظ لذلك بقوله صلى الله عليه وسلم لبعضهم: «اعقلها وتوكل »، وقال لبلال: أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا «.٢٥

ولذلك فهو لا يغفل هذه القضية ويحث على تتبعها في النصوص، واستخراج الحكم من وراء ذلك، « ولا بد من معرفة مداخلها ومخارجها ومفرقها ومجموعها، فإن الله عز وجل لم يردد في كتابه ذكر الاعتبار، والحث على التفكير، والترغيب في النظر وفي التثبت والتعرف والتوقف، إلا وهو يريد أن تكونوا علماء من تلك الجهة، حكماء من هذه التعبئة «.٢٦

٢-٢- الغلو والإلحاد ينشأ من الجهل باتساع التعبير في اللغة

ويضرب الجاحظ لذلك مثلا عند جهال الصوفية، حين ادعوا أن في النحل أنبياء لقول الله تعالى: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ

بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) النحل: ٦٨، وزعموا أن الحواريين كانوا أنبياء لقوله تعالى: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ) المائدة : ١١١.

« وما خالف إلى أن يكون في النحل أنبياء؟ بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء، لقوله عز وجل على المخرج العام: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)، ولم يخص الأمهات والملوك واليعاسيب، بل أطلق القول إطلاقا».٢٧

ومما تتميز به اللغة من كونها واسعة في التعبير ما جاء في قوله تعالى: (يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) النحل: ٦٩

« فالعسل ليس بشراب، وإنما هو شيء يحول بالماء شرابا، أو بالماء نبيذا، فسماه كما ترى شرابا، إذ كان يجيء منه الشراب.

وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا: جاءت السماء اليوم بأمر عظيم، وقد قال الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قوم

رعيناه وإن كانوا غضابا

فزعموا أنهم يرعون السماء، وأن السماء تسقط.

ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها.

ومن حمل اللغة على هذا المركب، لم يفهم عن العرب قليلا ولا كثيرا، وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم، وبه وبأشباهه اتسعت، وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة وهذيلا، وضواحي كنانة، وهؤلاء أصحاب عسل، والأعراب أعرف بكل صمغة سائلة، وعسلة ساقطة، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب أو طعن عليه من هذه الحجة؟».٢٨

٢-٣- التقديم والتأخير في القرآن الكريم إيقاظ للضمائر وحث على التأمل

والقياس في هذه الفكرة مستخرج من الكلام العربي، ذلك أن الباعث على الفكر في الكلام، ما يرد فيه مقدما ومؤخرا، ومثاله ما جاء على وزن قولهم: ما له عندي قليل ولا كثير وقولهم: العير والنفير، وقولهم: الخل والزيت، وقولهم: ربيعة ومضر، وسليم وعامر، والأوس والخزرج .

ومما ورد على ذلك قول الله تعالى: (لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) الكهف: ٤٩

فهذا يدل على أن المقدم مقصود بالتقديم عند العرب، وكذلك المقدم في القرآن الكريم مقصود بالتقديم، ولا بد من البحث عن سر هذا التقديم، الذي خولف فيه ما هو أصل في الكلام، لأن الأصل أن يقدم الجليل على الحقير، والكبير على الصغير، فإذا خولف الأصل فلا بد من إثبات فائدة كانت ستذهب لو أنه روعي فيها المحافظة على الأصل.

وهذا يشبه قوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) الرحمن: ٣٣. حيث قدم ذكر الجن على الإنس، رغم أفضلية الإنس، وما ذلك إلا لسر بلاغي يحتاج إلى كشف.

يقول عبد القاهر الجرجاني: « هو باب كثير المحاسن، جم الفوائد، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك هن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ من مكان إلى مكان».٢٩

ولسنا هنا بصدد اكتشاف مواضع التقديم والتأخير، ولكن تكفينا هنا الإشارة والدلالة، دون التفصيل، ويكفينا أن ندرك أن كل كلمة في القرآن الكريم تحتاج إلى فكر وروية لاكتشاف سبب اختيار ذلك الموضع الخاص بها.

٢-٤- ليس اتباع ظاهر اللفظ دائما هو الصواب في التأويل

ومثال ذلك ما رواه قتادة عن أبي موسى قال: لا تتخذوا الدجاج في الدور فتكونوا أهل قرية، وقد سمعتم الله تعالى يقول: (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نائمون) الأعراف: ٩٧

ولكن لهذا التأويل محملا عند الجاحظ، فقد حمله الجاحظ بأن جعله من أبي موسى رضي الله عنه خطابا خاصا للجنود والمحاربين أثناء الغزو، فقد كره للفرسان ورجال الحرب اتخاذ ما يتخذه الفلاح وأصحاب التعيش، مع حاجته يومئذ لتفرغهم لحروب العجم، وأخذهم في تأهب الفرسان، وفي دربة رجال الحرب، فإن كان ذهب إلى الذي

يظهر في اللفظ فهذا تأويل مرغوب عنه.٣٠

وقد قال أيضا: « وقد يشبه الاسمُ الاسمَ في صورة تقطيع الصوت، وفي الخط في القرطاس، وإن اختلفت أماكنه ودلائله، فإذا كان كذلك، يعرف فضله بالمتكلمين به، وبالحالات والمقالات، وبالذين عنوا بالكلام، وهذه جملة وتفسيرها يطول «.٣١

كما أن عمر ابن الخطاب نهى رجلا عن تأويل مبني على ظاهر اللفظ، حيث سمع رجلا يدعو، ويقول: « اللهم اجعلني من الأقلين»، قال: ما هذا الدعاء، قال: إني سمعت الله عز وجل يقول: (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)سبأ : ١٣، وقال: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)هود : ٤٠، قال عمر: عليك من الدعاء بما يعرف.

كما أن من أمثلة التأويل المتوهم قول عبد الرحمن بن مهدي ف تفسير كلمة « الدهر « في قوله صلى الله عليه وسلم «لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله»

قال: وجه هذا عندنا أن القوم قالوا: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) الجاثية: ٢٤، فلما قال القوم ذلك، قال النبي صلى الله عليه وسلم: ذلك الله، يعني أن الذي أهلك القرون هو الله عز وجل، فتوهم منه المتوهم أنه إنما أوقع الكلام على الدهر.٣٢

٢-٥- إقرار القرآن اللفظ الغريب يدل على سلامته في التعبير

وهنا يتواصل الحديث حول العقل واللغة، وكيف تكون الألفاظ اللغوية في ظاهرها مخالفة لما يدل عليه العقل.

فالجاحظ يعرض لأصناف الناس في مثل هذه المواقف الغريبة — مثل جعل الملائكة بأجنحة ثلاثة، وطعن بع الملحدين في ذلك فيقول:

« وغرائب الدنيا كثيرة عند من كان كلفا بتَعَرّافها، وكان له في العلم أصل، وكان بينه وبين التبين نسب.

وأكثر الناس لا تجدهم إلا في حالتين: إما في حال إعراض عن التبين وإهمال للنفس، وإما في حال تكذيب وإنكار وتسرع إلى أصحاب الاعتبار وتتبع الغرائب، والرغبة في الفوائد ثم يرى بعضهم أن في ذلك التكذيب فضيلة، وأن ذلك باب من التوقي، وجنس من استعظام الكذب، وأنه لم يكن كذلك إلا من حاق الرغبة في الصدق، وبئس الشيء عادة الإقرار والقبول.

والحق الذي أمر الله تعالى به ورغب فيه وحث عليه أن ننكر من الخبر ضربين: أحدهما ما تناقض واستحال، والآخر ما امتنع في الطبيعة، وخرج من طاقة الخلقة، فإذا خرج الخبر من هذين البابين، وجرى عليه حكم الجواز، فالتدبير في ذلك التثبت، وأن يكون الحق في ذلك هو ضالتك، والصدق هو بغيتك، كائنا ما كان، وقع منك بالموافقة، أم وقع منك بالمكروه.

ومتى لم تعلم أن ثواب الحق وثمرة الصدق أجدى عليك من تلك الموافقة لم تقع على أن تعطي التثبت حقه «.٣٣

الهوامش

١ - أي: نظر في العلم المسمى: بعلم الكلام.
٢ - الحيوان، الجاحظ، ج١ص١٥٣-١٥٤.
٣ - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود شاكر، ص٣١٥.
٤ - الحيوان، الجاحظ، ج١ص١٨٠.
٥ - ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تح: عبد المحسن بن تركي، ج٧ص١٤٧.
معاني القرآن للزجاج، تح: عبد الجليل عبده شلبي، ج٢ص١١٠.
٦ - جامع البيان، الطبري، تح: عبد المحسن بن تركي، ج٧ص٥٠٣.
٧ - الحيوان، الجاحظ، ج٣ص١٣٠.
٨ - الحيوان، الجاحظ، ج٣ص٢٥٠.
٩ - يشير بذلك إلى لفظة: أصبح، المشتقة من الصباح الذي يلي الليل.
١٠ - يشير إلى ما تدل عليه لفظة يومئذ المشتقة من اليوم.
١١ - الحيوان، الجاحظ، ج٣ص٤١٤.

١٢ - الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، تح: محمد شاكر، ص١٣٤.
١٣ - الحيوان، الجاحظ، ج٣ص٢٨٦.
١٤ - الحيوان، الجاحظ، ج١ص٢١١.
ومعنى نفِد ينفَد: فني، ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تح: محمد خليل عيتاني، ص٥٠٢.
١٥ - جامع البيان، الطبري، ج١٨ص٥٧٢.
١٦ - جامع البيان، الطبري، ج١٨ص٥٧٢.
١٧ - ينظر: التفسير اللغوي للقرآن الكريم، مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، ص٥٩١.
١٨ - المحرر الوجيز، ابن عطية، ص١٢١٦-١٢١٧.
١٩ - المحرر الوجيز، ابن عطية، ص١٤٨٩.
٢٠ - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تح: عبد المحسن بن تركي، ج١٦ص٤٨٩.
٢١ - الحيوان، الجاحظ، ج٢ص١٨٩-١٩٠.
٢٢ - الحيوان، الجاحظ، ج٢ص١٩١.
٢٣ - الحيوان، الجاحظ، ج٢ص١٥.
٢٤ - الحيوان، الجاحظ، ج٢ص١١٠-١١١.
٢٥ - الحيوان، الجاحظ، ج٢ص١١٤.
٢٦ - الحيوان، الجاحظ، ج٢ص١١٥.
٢٧ - الحيوان، الجاحظ، ج٥ص٤٢٤.
٢٨ - الحيوان، الجاحظ، ج٥ص٤٢٦.
٢٩ -دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود محمد شاكر، ص١٠٦.
٣٠ - الحيوان، الجاحظ، ج١ص٢٩٦.
٣١ - الحيوان، الجاحظ، ج١ص٣٠٦.
٣٢ - الحيوان، الجاحظ، ج١ص٣٤٠.
٣٣ - الحيوان، الجاحظ، ج٣ص٢٣٨-٢٣٩.